

## رمزي ريحان\*

### روح بير زيت

في سنة ١٩٧٢ بدأت كلية بير زيت بالتطور المنهجي من كلية متوسطة إلى كلية جامعية، ثم إلى جامعة. وكان هذا المشروع جريئاً نظراً إلى الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، لأن سلطات الاحتلال بطبيعتها كانت تعرقل أي مبادرات فلسطينية للتقدم والتطور. وعلى الرغم من ذلك تمكنت جامعة بير زيت من تحقيق هدفها وتخريج أول فوج من حملة شهادة البكالوريوس في سنة ١٩٧٦.

كانت تلك السنوات الأربع ملأى بالتناقضات بين المثابرة والحيوية والاندفاع وبين مجابهة الاحتلال، وعمل جابي، كنائب رئيس للجامعة، مع رئيسها حنا ناصر على إدارتها في تلك الأوضاع الصعبة. وفي سنة ١٩٧٤ أبعدت سلطات الاحتلال رئيس الجامعة إلى خارج فلسطين فأصبح جابي الرئيس التنفيذي الفعلي، بينما عمل حنا ناصر على إجراء اتصالات كثيرة لنشر اسم الجامعة والحصول على الدعم المادي والمعنوي لها من الخارج.

أصبحت خلال تلك الفترة عضواً في إدارة الجامعة فعملت مع جابي عن كثب لأعوام

**تعرفت** على جابي برامكي عندما بدأت العمل في كلية بير زيت في سنة ١٩٧٠. كان مهيباً قامته الطويلة وصوته الجهوري، لكن لطفه وابتسامته وإصغائه للمتحدثين معه كانت تبعث الراحة والطمأنينة. كان في ذلك الوقت عميد كلية بير زيت، وهي كلية صغيرة فيها نحو ٢٠٠ طالب وطالبة معظمهم من القدس ووسط الضفة الغربية، ومنذ ذلك الحين، وحتى آخر لحظاته، ظل جابي متمسكاً بما كان يسميه "روح بير زيت".

قد يصعب تحديد هذه الروح التي تشتمل على التعامل الحضاري مع الغير، وعلى الصدق والأمانة والنزاهة، كما تستوعب الأفكار والتوجهات المتعددة باحترام متبادل. لقد كانت العلاقات بين الطلبة والمدرسين علاقات مساواة وتوجيه ورعاية. وتتشارك في هذه الروح الأصالة والحدثة فتندمج فيها النشاطات الأكاديمية والاجتماعية والوطنية، وهذه الروح الفريدة التي أشاعها جابي هي التي أغرتني بالبقاء في بير زيت حتى الآن.

\* مسؤول التخطيط في جامعة بير زيت.

إبعاد العديد من الطلبة والأساتذة، وقام جيش الاحتلال بالهجوم على الجامعات ومحاصرتها وإغلاقها مرات عدة. وكان جابي يواجه قادة وجنود الاحتلال عند هجومهم على جامعة بيرزيت بمزيج غريب من الغضب والهدوء، الأمر الذي كان يربكهم. وتُعرف عنه في تلك المواقف الحرجة مقولته "يا جبل ما يهزك ريح".

بعد تكوين السلطة الوطنية الفلسطينية وإنشاء وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية طُلب من جابي الانضمام إلى الوزارة كمستشار، وجرت الاستعانة بخبرته الواسعة وتوجهاته الراسخة في هذا المنصب. وكان في أواخر سني حياته عضواً في مجلس أمناء جامعة بيرزيت، وشارك في اجتماعاته من دون كلل حتى بعد أن ألمّ به المرض العضال واشتد. هكذا كان جابي: مستعداً لخدمة وطنه وشعبه وتواقماً إلى المزيد من العطاء حتى آخر لحظة.

كان جابي على الدوام متفائلاً يقدّر قيمة الحياة. كان بشوشاً ولطيفاً في علاقاته الاجتماعية، وحنوناً في تعامله مع مَنْ هم أصغر منه سناً أو أقلّ مقاماً. كان يحب الموسيقى والغناء والشعر والطبيعة، وكان يعرف كيف يتمتع بالأمر الصغير في الحياة وكيف يتحمل المسؤوليات الجسام. لقد تركت أعماله المتعددة أثراً راسخاً في التعليم العالي الفلسطيني، وفي أجيال من خريجيه.

هذا هو جابي: جبل لا تهزه الرياح ولا تثنيه الصعاب. ■

طويلة. كانت أمامه مسؤوليات ومهام متعددة تابعها بتوازن موفراً لجميع من حوله توجيهات حكيمة. كان هناك تحضير المناهج واستقطاب المدرسين مع ارتفاع عدد طلبة الجامعة من المئات إلى الألوف. وقد رافق ذلك التخطيط لحرم جامعي جديد يستوعب هذا النمو، ثم الإشراف على بنائه وتجهيزه. وفي ربيع سنة ١٩٧٦ حضر حنا وجابي اجتماعاً لاتحاد الجامعات العربية قُبلت الجامعة خلاله عضواً في الاتحاد، وكانت بذلك أول جامعة فلسطينية تنضم إلى الاتحاد، كما أصبحت الجامعة في السنة التالية عضواً في الاتحاد العالمي للجامعات، وبذلك اكتملت المرحلة الأولى.

في سنة ١٩٧٧ تأسس مجلس التعليم العالي الفلسطيني في القدس، وانتُخب جابي أول رئيس له. وعمل جابي على مأسسة قطاع التعليم العالي وترشيده وتوثيق التعاون بين مؤسساته المتعددة، وكذلك إنشاء العلاقات مع المؤسسات العربية والعالمية. واقتضت مهمة توفير المصادر المالية والبشرية لاستدامة التعليم العالي الفلسطيني جهداً مضمناً منه، وقد أدت قيادته للمجلس إلى نمو التعليم العالي وازدهاره.

طبعاً، تحققت هذه النجاحات تحت أوضاع الاحتلال القاسية. ومع ازدياد أعداد طلبة الجامعات الفلسطينية ونشاطاتهم ضد الاحتلال من تظاهرات واجتماعات وغيرها، أصبحت الجامعات الفلسطينية هدفاً رئيسياً لقمع الاحتلال. فتم اعتقال وتعذيب آلاف الطلبة واستشهد العشرات، كما جرى